

تاريخ القرآن

(36) المفسرين تقريبا ، ورواة الأثر ، وأساطين علوم القرآن (1). وأما العقلي ، فالقرآن أنزل على أمة لا عهد له بالقراءة ، ليبلغه إلى أميين لا عهد لهم بالتعلم ، فكان أول طوق يجب أن يكسر ، وأول حاجر يجب أن يتجاوز. هو الجمود الفكري ، والتوقع على الأوهام ، وما سبيل ذلك إلا الافتتاح بما يتناسب مع هذه الثورة ، وقد كان ذلك بداية للرسالة بهذه الآيات (بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم) (2). إنها الدعوة الفطرية إلى العلم والإيمان بوقت واحد ، والبداية الطبيعة لمهم هذا العلم ، ورائد وسيلة التعلم ، فهو إرهاب بإيمان سيثع ، وإشعار بإفاضات ستنتشر ، مصدرها الخالق ، وأداتها القلم ، لارتداد المجهول ، واكتشاف المكنون ، والقرآن كتاب هداية وعلم. فلا ضير أن تكون أوائل العلق أول ما نزل ، وسياقها القرآني لا يمنع من نزولها دفعة واحدة ، لا سيما إذا وجدنا نصا في أثر ، أو رواية من ثقة. وأما ما حكاه ابن النقيب في مقدمة تفسيره ، وأخرجه الواحدي عن عكرمة والحسن ، والضحاك عن ابن عباس: من أن أول ما نزل من القرآن (بسم الله الرحمن الرحيم) (3) فلا ريب فيه ، ولا غبار عليه: " فإنه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها ، فهي أول آية نزلت على الإطلاق " (4). وبدأت مسيرة الوحي تلقي بثقلها على عاتق الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وفتح محمد صلى الله عليه وآله وسلم للنداء السماوي ، (إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا) (5) ذراعا وقلبا وتاريخا. وهذا القول ثقل بمبناه ومعناه ، فهبوطه من سماء العزة ، وساحة الكبرياء والعظمة يوحى بثقله في الميزان ، وتسييره للحياة العامة بشؤونها _____ (1) ط: البخاري ، الصحيح: 1 | 5 + الباقلاني ، نكت الانتصار: 88 + الطبرسي ، مجمع البيان: 5 | 514 + الزركشي ، البرهان: 1 | 206 + السيوطي ، الاتقان: 1 | 68 وما بعدها. (2) العلق: 1 - 5. (3) السيوطي ، الاتقان: 1 | 71. (4) المصدر نفسه: 1 | 71. (5) المزمّل: 5.